

الماء وطقوسياته في منطقة القصور

عبد القادر خليفي *

الماء والمكان والإنسان

يحتل الماء - باعتباره أهم أسس الحياة - مكانة هامة في الأوساط الشعبية بالمنطقة الجنوبية الغربية من الجزائر (القصور). هذه المنطقة التي ينقسم سكانها إلى فئتين: فئة حضرية وفئة بدوية. تسكن الأولى القرى المسماة بـ "القصور" وهي ذات بناء عمراني متميز يعود بناؤه إلى عهد ما قبل الإسلام، مبني بمواد طينية صلبة. كانت في السابق محاطة بأسوار وأبراج ذات وظيفة دفاعية بدأت معالمها تتغير من سنة لأخرى.

يعيش السكان الحضر "القصوريون" اعتمادا على زراعة الأرض والتجارة وتربية بعض الحيوانات، ويعتمدون على مياه العيون المنبجسة من أطراف الأودية، ويعيشون عيشة اكتفاء ذاتي.

ويتبع هؤلاء القصوريون في عملية ريّ بساتينهم طرقا دقيقة متعارف عليها محليا، يتم فيها تعاقب التوزيع تعاقب الليل والنهار، "ويستعملون في ذلك ساعات شمسية¹ تجمع بين وظيفتي تحديد أوقات الصلاة وضبط توزيع المياه. وبهذه الطريقة يستعمل الفلاحون مياه العيون في كل قصر، كل حسب المساحة التي يملكها أو يكتريها².

* أستاذ بقسم التاريخ، جامعة وهران.

¹ - توجد إحدى هذه الساعات بقصر مغرار التحتاني، كما تستعمل طرق تقليدية أخرى مثل الساعة المائية.

² - خليفي، عبد القادر : القصص الشعبي في منطقة عين الصفراء. - رسالة ماجستير نوقشت بمعهد الثقافة الشعبية بتلمسان، 1990 - 1991م.

أما الفئة الثانية فهي البدو الرحل الذين يعتمد اقتصادهم على تربية الحيوانات في المراعي وزراعة الحبوب في سنوات الرخاء. إلا أن ندرة الأمطار تتحكم في قيمة المحصول.

وهكذا فإن الماء في هذه المنطقة التي تجمع بين مناخي الصحراء والإستبس هو الحياة برمتها، إذ أن حياة الترحال التي يقوم بها البدو ترتبط أساسا بوجود هذه المادة الحيوية أو انعدامها. لذلك نجدهم في ترحال دائم وإقامة مؤقتة، فحيث كان الماء استقرار البدوي ليتزود هو وحيواناته بما يكفيهم، فإذا انعدم بادر الجميع إلى شد الرحال بحثا عن هذا المورد الثمين الذي هو مصدر مستقرهم ومنتجعهم.

ولقد وُجد نوع خاص من العلاقة الحميمية بين هتين الفئتين: الحضر والبدو، منذ عهود قديمة، وأصبح الواحد منهم ينعت نظيره بـ: "صاحبِي" أو "أصحابنا"، ويتم التزاور بينهما وتبادل السلع. حيث يزور البدوي صاحبه الحضري أسبوعيا أو شهريا ليتزود بالخضر والفواكه، بينما يزور القصورى (الحضري) صاحبه البدوي في فصل الربيع عندما تلد الشياه ويتوفر الحليب ومشتقاته، ويُزوده البدوي بحاجياته من الحليب والأصواف وغير ذلك. وتنتقل الصلات إلى الأبناء فتتطور علاقات الأخوة بين الطرفين.

وقد أقيمت المراكز الحضرية المسماة بـ "القُصور" في هذه المنطقة على أطراف الأودية لتسهيل زراعة غذاء الإنسان والحيوان وللتزود بمياه الشرب. ومن أبرز هذه القصور نجد: السفيسيفة، ثيوت، مغرار التحتاني، مغرار الفوقاني، بوسمغون، أربّه التحتانية، أربّه الظهرانية،

وتنفرد بلدة ثيوت بوجود سد ماء يختزن المياه، ومنه تخرج المياه عبر فتحة تدعى "غار الثُحيرة" لتتوزع على قسمين: الساقية القبلية، والساقية الغربية. يقول أحد الرواة³: "إن السد الحالي أعيد بناؤه منذ حوالي مائة وخمس سنوات، بعد أن دمر الفيضان جدران السد القديم، فأعاد سكان القصر بناءه كما كان، وذلك عن طريق العمل الجماعي التطوعي (التّؤيزة)، وتسمية ثيوت جاءت من معناها الذي يعني العين (بالشّلة المحلية) وتجمع على تيطاوين أي؛ عيون الماء"⁴.

³ - بنواز، سليمان : 76 سنة، فلاح متعلم. - ثيوت 1989 م.

⁴ - الراوي نفسه : ويعود سكان القصور إلى أصول أمازيغية، مازالت الشّلة مستعملة بينهم.

وتتواجد على طول منطقة الأطلس الصحراوي (جبال القصور جزء منه)، رسوم صخرية تدعى محليا بـ: "الحَجَرَة المكتوبة"، وهي عبارة عن أشكال وصور لحيوانات كانت تعيش مع إنسان المنطقة القديم، ويتبين من أنواع الحيوانات المرسومة (فيلة، غزلان، أبقار وحشية، زرافات، ...) أن المنطقة كانت تعيش عصرا مطيرا وكانت الغابات كثيفة، وهو المناخ المناسب لعيش مثل هذه الحيوانات، والتي انقرضت بتغير الظروف المناخية في العصر الحجري الحديث⁵. كما أن اكتشاف بقايا الديناسور (العشبي) مؤخرا، سنة 2000، بمنطقة سفيسيفة غربي عين الصفراء من قبل باحثين من كلية علوم الأرض بجامعة وهران، يؤكد ذلك.

الماء في الموروث الشعبي

إن أهمية الماء هذه جعلته يكتسي طابعا خاصا في الموروث الشعبي، ويتجلى ذلك في ضرورة وجوده والدعوة إلى حسن استغلاله ومدحه، واستعمال كل الوسائل للحصول عليه، ويظهر ذلك في الممارسات اليومية لسكان منطقة القصور بالجنوب الغربي الجزائري عند قبائل الطرافي وأولاد سيد الشيخ وحميان والعمور والقصوريون وغيرهم. كما تتضح في بعض معتقداتهم في الحكايات الشعبية والأمثال والحكم وحتى في الأدعية.

ففي الأمثال الشعبية: "أَرْفَدَ الْمَاءُ، وَلَوْ كَانَ تَحْطُ عَلَى الْمَاءِ" و "مَا تَهَرَّقُ مَا، حَتَّى تُصِيبَ مَا" وهي دعوة للتقليل من استهلاك الماء والاحتياط اللازم لذلك. وعن ضرورة وجوده صحبة الطعام يرد المثل القائل: "الطَّعَامُ بِلَا مَا، مَن قَلَّةَ الْفَهَامَةِ"، فكمال الغذاء لا يتم إلا بوجود الماء. و "الْمَاءُ وَالْأَعْوَادُ، وَالْقُوَّةُ عَلَى الْجَوَادُ" و "كَسَّرْتِي وَمَايَا، وَلَا حَدِيثُ قَفَايَا". ومن أدعية الخير التي تعترف بقيمة الماء ما يلي: "اللَّهُ يَجْعَلُكَ كِي الْمَاءِ، تَخْرُجُ مِنْكَ كُلُّ نَعْمَةٍ".

وبما أن المجتمع المحلي مجتمع مسلم، فإن الدين يمثل لديه أحد الأنساق الهامة في الثقافة، وإليه يُعزى تكامل الثقافة وتجانسها. ولهذا فإن قيم الناس

– أنظر: - « Le Maghreb » ; tome 02 ; Préhistoire de l'Afrique.- Vaufrey, Raymond
- Imprimerie officielle de la Tunisie- Tunis sans date.- p. 357.

ومعتقداتهم تعود إلى أصول دينية، ولكن مسألة الدين لدى العامة تظل شعبية في كل مظاهرها، علاقته ضعيفة بالتأويل النصي المكتوب.

ولهذا فإن الماء مطهر للشخص من الكفر والنجاسة والأدران، فوجب استعماله وعدم التكاسل عن أداء الفروض الدينية بحجة ندرة الماء لأن "الْمَاءَ بَلَا شَرًّا، وَالْقَبْلَةَ بَلَا كَرًّا".

ويستخدم الماء في النظافة الشخصية كما يستخدم في شعائر الطهارة الدينية بأشكالها ومناسباتها المختلفة، كما هو الحال في الوضوء الذي يسبق الصلاة، أو للتخلص والتطهر من دنس الحالات الاستثنائية العارضة (الجنابة - الحيض) أو غسل الميت المقبل على المحاسبة في القبر. "فالماء إذن هو الذي يرد الفرد من ذلك الوضع الاستثنائي إلى الحياة العادية، أي أنه يرده إلى المجتمع، وبذلك يعود التوازن إلى العلاقات التي تربطه بالآخرين".⁶

وإذا كانت الشعائر الدينية تسن أدعية محددة وسلوكات معينة، فإن للعامة سلوكاتها وطقوساتها الخاصة، من ذلك أن بعض هؤلاء يستهلون وضوءهم للصلاة بالدعاء التالي على شكل خطاب موجه إلى الماء:

بِاسْمِ اللَّهِ عَلَيْكَ يَا لَمَّا يَا لُؤْمَانَ⁷
باسم الله عليك يا لَمَّا يا غَرَّاسَ الْغُرُوسِ
يا عتاق النفوس يا رَوَّاحَ الْعُرُوسِ⁸
يا الْخَارِجَ مِنْ جَنَّةِ الْفَرْدُوسِ
أَلْيَا مَتَّنَا نَتَّعَسِلُوا بِكَ وَلْيَا حَيِينَا نَتَّقُوْهُوَ بِكَ
أَحْنَا بِاللَّهِ وَبِكَ
أَلْيَا مَا بُغِيْتُنَا أَحْنَا بُغِيْنَاكَ⁹

لقد جمعت الرؤية الشعبية في هذه المقطوعة، عددا من صلاحيات الماء في مختلف شؤون الناس.

⁶ - أبو زيد، أحمد : الماء والبناء الاجتماعي ومفهوم الزمن. - المجلة العربية للثقافة، العدد 36، مارس 1999م.

⁷ - أمان : هو الماء بالأمازيغية.

⁸ - رواح، العروس : بمعنى حلول ليلة دخلة العروسين.

⁹ - بمعنى : إذا لم ترغب أنت في حبنا فنحن نحبك، رواية سعداوي فاطنة وأختها أم الخير، 80 و 82 سنة على التوالي، عين الصفراء، 1996م.

فهو: غراس الغروس ؛ أي بواسطته يسقى النبات والخضروات.

وهو: عتاق النفوس أي؛ المنجي من الهلاك.

وهو: رواج العروس: أي جرت العادة أن يستحم العروسان كل مع أصدقائه ليلة الدخلة. أي أن أول مراسيم هذه الليلة هو التوضؤ للتسلح ضد أي مكروه قد يصيب العروسين من جهة، وتنظيف الجسم من جهة أخرى.

وهو الخارج من جنة الفردوس؛ قد يكون القصد ما جاء في بعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى: "... جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ..."، والفردوس هي أعلى درجة يصلها المؤمن في الجنة، والجنة أمل كل مسلم مؤمن. إن المتاعب الحاضرة التي يلقاها المرء، وبعده عن اللذات العاجلة الراهنة هي سبيله إلى لذة كبرى آجلة مستقبلية، وهكذا فإن مجتمع الناس يتخيل الجنة التي سيثاب بها في المستقبل على سلوكه الطيب في الحاضر.

إن هذا الماء المقدس "الخارج من جنة الفردوس" هو الذي يعطي الحياة، وبواسطته يُغسل الميت، ليتطهر آخر مرة من أدران الدنيا فيدخل عالم الغيب نظيفا متخلصا من كل رذائل الدار الأولى (أليا متنا تغسلوا بك* وليا حيننا نتقوتوا بك).

هكذا يمجّد الماء ويقّس، وقد قالت العرب قديما: الماء ملّك أمر. أي؛ إن الماء ملاك الأشياء وقوامها.

وتنظر العامة إلى الماء نظرة تبجيل أخرى عندما يتعلق الأمر بالينابيع المائية الحارة ذات الخاصية الاستشفائية، التي يقصدها الناس لعلاج بعض الأمراض الجلدية أو الباطنية، ذلك أنه يحدث - في كثير من الأحيان - أن يعارض بعض العامة إدخال أي تغيير على تلك البقاع المحتوية على مياه معدنية حارة، إذ يرون أن بقاءها على حالتها الطبيعية أنفع للعلاج، وإبقاء لـ "البركة" فيما لو أحدث بها أي تعديل. وهم يفضلون الاستحمام في الأحواض الجماعية لأنها أقرب - في نظرهم - إلى الحالة الطبيعية من الغرف الحديثة، المزودة بالمرشاة، ويدعون هذه الغرف الجماعية (أو الأحواض) بـ "حمام البركة" تمييزا لها عن غرف المرشاة الفردية التي هي في نظرهم مجرد حمامات عادية. "إن مثل هذه المقدسات المكانية تتكرر مرارا على امتداد الأرض العربية، وتعيش حكاياتها

الأسطورية في أذهان الجماهير العربية، لدرجة أن بعضها بات جزءاً لا يتجزأ من طقوس الجماهير أو تقاليدها.¹⁰

إن قلة المياه في المنطقة موضوع الدراسة وترامي الأراضي الصحراوية بها، جعلت الماء موضوعاً للخوارق ومادة للكرامات، فكم من بطل تمكن من حفر الأرض بركاب سرج جواده ليتفجر الماء، بعد أن استبد بالناس العطش وضافت عليهم الأرض بما رحبت، فيرتوي منه رفقاؤه ومطاياهم، وقد جاء ذلك في بعض الحكايات الشعبية (حكاية عبو الاكل). وكم من رجل صالح استطاع أن يسقي تابعيه من إناء ماء واحد ارتوى منه الجميع، وبقيت المياه في الطاس على حالها كأن لم يمسه شي.¹¹

وهكذا فإن المياه هنا لا تأتي عن طريق حفر بئر أو من ينبوع ماء، بل يأتي نتيجة قوى خارقة لبطل شجاع أو بركة ولي صالح، وعلى هذا لمنوال تقدم الكرامة حلاً غيبياً لمشكلة الماء في مجتمعاتنا العربية.

ويرتبط بالماء ما يدعى بعملية الاستسقاء، وهي عملية "طلب السقاية من الله سبحانه عند حدوث الجذب وتؤثر الناس بالجفاف في شربهم وشرب مواشيهم، وتأثر نباتاتهم ومزروعاتهم لانعدام المطر".¹²

والاستسقاء قديم قدم الإنسان، فقد كان الناس يلتجئون إلى معابدهم وأصنامهم يقيمون فيها صلواتهم وطقوسهم، ويقدمون لها القرابين رجاء أن يسقوا "ويحصلوا على الطقس الملائم والمحصول الوفير".¹³

وفي الجزائر وبخاصة في المناطق الغربية يقوم الأطفال بترديد أنشودة "غُنْجَة" في شوارع القرية أو الحي، عندما تنقطع الأمطار ويسود الجفاف، وهم يحملون ملعقة كبيرة يلبسونها ألبسة جميلة فتصبح على شكل دمية يرفعونها إلى أعلى

¹⁰ - أحمد خليل، خليل : مضمون الأسطورة في الفكر العربي. - بيروت، دار الطليعة، ط3، 1986. - ص. 73

¹¹ - خليف، عبد القادر : المأثور الشعبي لحركة الشيخ بوعمامة. - رسالة دكتوراه دولة، نوقشت بقسم اللغة العربية وآدابها، بجامعة وهران : 2000 - 2001م. - ص. 263.

¹² - خليف، عبد القادر : من الموروث الثقافي الجمعي المغاربي (غنجة). - مجلة الثقافة الشعبية العدد 02 1995م. - ص. 133.

¹³ - سير، جيمس فريزر : الفصن الذهبي. - ترجمة تحت إشراف أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971م. - ص. 101.

وهم يسيرون بين الشوارع، يقومون بجمع المواد الغذائية لتحضير وجبة بعد نهاية الدورة ويأكل الجميع¹⁴.

وعادة "غنجة" هي عبارة عن استسقاء شعبي، موجه إلى الإله عسى أن يرحم البلاد والعباد بإنزال المطر.

وتتعامل العامة مع الماء - أحيانا - بكل حذر، حين يرتبط الأمر بالمعتقد الشعبي عن عالم الجن والشياطين، ولذا تمنع العامة أبناءها من الاستحمام في بعض الأوقات من اليوم، والحكمة الشعبية تقول في هذا المعنى: "عَوَامَة ونَوَامَة، من العَصْر لِهِيَه مَاضَمَنْتْ لَهُمْ سَلَامَه". أي أن الاستحمام والنوم في الفترة الممتدة من وقت العصر إلى المغرب، قد يؤدي إلى الإصابة "بضربة جن". كما يُمنع الأطفال من الخوض في المياه في هذه الفترة من اليوم و أثناء الليل للسبب نفسه، لأن الناس تعتقد أن الجن والشياطين تنشط في هذه الفترة، كما تمنع العامة أبناءها من الاجتياز فوق مداخل المياه القذرة كل وقت، لأنها -كما يعتقدون- ملجأ للجن وأبنائه.

فالماء أصبح في هذه الحالة مجلبة للمكاره والمصائب، ولعل هذا المعتقد يعود إلى عهود ما قبل الإسلام، فقد نقل المسعودي ما ذكره أهل التواريخ والمصنفون لكتب البدو، كوهب بن منبه، وابن اسحاق وغيرهما، "أن الله خلق الجن من نار السموم وخلق منه زوجته، وسكنت كل طائفة مكانا معيناً كالبحور والجزائر والخلوات والحمامات والمزابيل"¹⁵ وغير ذلك.

وعلى العموم فإن الماء هو المتحكم في حياة الناس، لذا مجدوه واحترموه، وأجهدوا أنفسهم للحصول عليه بكل الوسائل مباشرة أو بالواسطة، في عالم الناس أو في عالم الغيب.

¹⁴ - خليف، عبد القادر : المرجع السابق. - ص. 130.

¹⁵ - أبو الحسن، علي المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر. - ج 2، بيروت، دار المعرفة، بدون تاريخ. - ص. 158.